نوابغ المدرسة المارونية الاولى

بقلم حضرة الخوري بطرس غالب (تابع)

وقد يكون حمل هؤلاء الكتبة على رأيهم هذا ما يقرأون من صور الاقرار بالايمان الذي كان البابوات يفرضونه على البطاركة لدى تثبيتهم وهذا امر لا يزال مرعيًا حتى اليوم وفي هذا الاقرار ذلٌ صريح للهرطقات . وكان الاحبار الاعاظم يطلبون ذلك من الاساقفة عموماً ومن بطاركة الشرق خصوصاً لانهم كانوا يخشون من اندساس الهرطقات بين الطوائف البعيدة عن مركز الوحدة الكاثوليكية ولاسيما بعد ان اعلن بطاركة القسطنطينيّة اتحادهم برومية مرّات ووعدوا بالثبات عليه غير انهم اخلفوا بوعودهم وربما ظن الاحبار الرومانيون ان للقسطنطينيّة سيطرةً على سائر البطاركة الشرقيين فتُكرههم على الاتصال كما جرى ذلك فيما سبق

على ان هذا كلّه لا يمنعنا من الاعتراف بان اغلاطاً تسرّبت الى بعض كتب الموارنة ولو لم يحدث ذلك لقلنا ان الله بمعجزة خاصّة قد حفظ الطائفة المارونية من كل خطأ. على انك لو انعمتَ النظر في احوال الموارنة لرأيت انهم بعطية خاصة من الله تمسّكوا بالكنيسة الرومانية مع ما كان يحيق بهم من الاسباب التي من شأنها ان تبعدهم عنها . ثم ان الاكليرس عموماً مع اجتهاده وانكبابه على نسخ الكتب وميله الى الحياة النسكية لم يكن ذا تهذيب كافٍ ولا كان باستطاعته ان يكتسب العلوم اللازمة ويروّض عقله على الحكم الدقيق في امور الدين وهي لا تخلو من صعوبة لان اسباب المعيشة لم تكن متوفرة لديه حتى يتفرغ للدرس بل كان الاساقفة انفسهم يضطرُّون الى حراثة الارض ليعيشوا. كما سترى ذلك في عريضة المطران جرجس عميرة الى الحبر الاعظم وفي تقرير رئيس الكرمليين عن حالة الياس مطران اهدن في ذلك العهد . ولو شاؤوا الدرس اين المدارس في الشرق يتلقّن فيها الاكليرس العلوم العالية وبهم يحيط غير المؤمنين والمبتعدون عن الكنيسة الكاثوليكية يتزلون بهم الشدائد والنكبات فضلًا عن ادّعاء النسّاخ الجهلة . ولدينا على ذلك بينات قاطعة . فكان هؤلاء يبدّلون ويغيّرون من الطرس والكلمات كما شاءت اهواؤهم ومدارکهم

المحدودة . زد على ذلك بُعد الموارنة عن مركز الوحدة وصعوبة الصلات بينهُ وبينهم

ثم ان الموارنة كانوا محتفظين بعادات طقسية شرقية غريبة عن الطقس اللاتيني وعن التهذيب البيعي اللاتيني لكنها غير محرّمة مما حمل بعض الرواة على تعدادها مع الاضاليل كمنح التثبيت بعد العماد فوراً ومناولة الصغار وزواج المرشّحين الكهنوت واحصاء درجة الايبوديا كونية في مصاف الدرجات الصغار فهذه كان يرى فيها بعض الوفدين شذوذاً عن ترتيبات الكنيسة الرومانية . وقد يحملهم على تفسير العبارات بغير مدلولها عدمُ تضلعهم من درس اللغتين السريانية والعربية ولا لوم في ذلك اذ لا يخفى ان لكل لغة اصطلاحاً واسلوباً يصعب ان يتمثّلها من كان غريباً عنها

تلك كانت الحالة يوم جاء الاب دندیني ورفيقهُ الى لبنان بعد ان عرّجا على قبرس ووصف اولهما تلك الجزيرة وعدد القرى التي يسكنها الموارنة فكانت تسعة عشر وهي : مطوشي . وفلودي . وسانتامارينا . وشيبو . وياري قرب خيثرايا . واسوماتوس . وغميلي . وكرباصيا . وكورماكيتي . وكازابيفاني . وفونو . وكروشيدا . وكيفالوريزو . وكروشيدا التحتا . وطالا . وكليبيريو . وبيسكوبيا . وغستريا . وفي كل قرية خورنية على الاقل . الفقر ضارب اطنابهُ بينهم . ومما ذكره الاب دندیني انهُ كان لموارنة قبرس اسقف مات من مدة ولم يُقَم لهُ خلف ولا ريب انه قد خُدع برواية كاذبة لان اسقف قبرس في تلك الايام كان يوحنا ابن اسكيلا وهو قبرسي توفاه الله سنة ١٥٩٨ فسيم في موضعهِ موسى العنيسي . وكان قد اسلم كثير من نصارى تلك الجزيرة من شدة الجور والاضطهاد

ولما وصل الاب دندیني الى طرابلس ما لبث ان توجه الى قنوبين فبلغها في اوّل ايلول وكان رفيقهُ اصيب بمرض فلم يستطع ان يصحبه . اما الكرسي الرسولي فكان قد عيّن لها ترجمانين من تلامذة المدرسة المارونية هما الخوري موسى العنيسي الذي كان عاد الى وطنهِ في سنة ١٥٩٥ ويوسف اليان الحلبي الذي سافر معهما من رومية

وما لبث الاب دندیني أن فاتح البطريرك بغرض قصادته وأطلعهُ على نيات الحبر الاعظم وطلب منهُ ان يعقد مجمعاً حافلاً بالاساقفة حتى يفاوضهم في امور الطائفة . فاخذ البطريرك يتشكّى من الذين رموا الطائفة بالهرطقة والضلال واعرب عن غيظهِ لان الحبر الاعظم لم يرسل اليهِ سوى براءة بسيطة فكأنه استدلّ بذلك ان

الوشايات به قد كان لها صدى في رومية فسعى الاب دندينى بتطييب خاطره وقدم له ما كان الحبر الاعظم انعم به من انية ثمينة وحلل كهنوتية واسقفية. ثم اتفقا على تأجيل عقد المجمع الى ان تسود السكينة في البلاد والى ان يشفى البطريرك من مرض كان قد ألمَّ به

واذا رأى الايوان ان يقضيا تلك الفترة متجولَين في لبنان ليقفا على احواله وشؤون الموارنة وعادات اهل البلاد كما كان فرض عليهما المجمع المقدس والرئيس العام في تعليماتهما وقد عهد البطريرك الى الشدياق يوسف خاطر السمعاني الحصروني قيم الكرسي البطريركي ومقدم جبة بشرّي ان يرافقهما في رحلتهما

ففي كل هذه الحوادث لم نرَ لجرجس عميرة ذكرًا في الكتابات وربَّما كان ذلك لانه لم يكن بعد رُقّي الى درجة الكهنوت المقدسة مع انهُ كان في وطنه لا يجهل الايوان منزلتهُ

وربَّما يكون أهمل امره كما تُرك رفقاؤه جانباً لاسباب لا يصعب ادراكها على من درس الاخلاق البشرية . فان تلاميذ المدرسة الرومانية كانوا يبرحون اوطانهم صغار السنّ يتهذبون في رومية تهذيباً مختلفاً عن عادات بلادهم ثم يعودون اليها فيرون ما فيها من نواقص او تأخر عن حالة اقطار الغرب التي تيسّر لها السعي الحثيث في ميادين الرقي والحضارة . وقد يكون ان بعضهم تجاوز سنّ الحكمة والاحترام الواجب بانتقاد ما لم يُرُقهُ فتغيَّر عليهِ رؤساؤه ولاسيما ان اغلب هؤلاء كانوا ينشأون في المحابس او لم يغادروا قريتهم او جبلهم بل صومعتهم فيخيّل لهم ان كل جديد بدعة وينظرون شذرًا الى هؤلاء الشبان الآتين اليهم بروح جديد الطامحين الى انتهاج خطة غير المتبعة الى ذلك اليوم فيتحذَّر رؤساؤهم منهم ويدَعونهم بغير عمل حتى يقنطوا ويقنط امثالهم او يعودوا الى الحُطَّة القديمة . كما ان المعيشة الصعبة كانت تثبط من عزيمة التلامذة الذين ما كانوا يستطيعون التفرّغ للاعمال الرسولية مع ضرورة اهتمامهم بمعاشهم الزمني

وليس في ما قدَّمنا عيب خاصّ بطائفة دون سواها بل هو نقص في الطبيعة البشرية تمتحض ممَّا يخالف ما تعوَّدتهُ لا علاج لهُ بغير التأني في معارج الفضيلة . ولا جرم ان قلنا عن التلاميذ الذين كانوا يُتركون بطَّالين بعد رجوعهم من رومية انهم

قد عرضوا امرهم للكرسي الرسولي فعمد الى الفحص عن هذا الامر واوعز الى الاب دنديني ان يهتمّ بملافاة الخلل حتى لا تفوت المنفعة المقصودة من تهذيب هؤلاء الشبان. وكان البابا اقليمس الثامن في رقيمه الى البطريرك سركيس الرزي المؤرخ في غرّة نيسان ١٥٩٥ مدح الخوري موسى العنيسي ويوسف اليان ورغب اليه ان يستخدم لمنفعة الطائفة التلامذة الذين يتكبّد عليهم الكرسي الرسولي النفقات الطائلة. فبناء عليه عُقد مجمع قنوبين الثاني وقد ذُكرت موادُّه في ذيل المجمع اللبناني الذي ترجمه المثلث الرحمات المطران يوسف نجم

قال السمعاني في كلامه عن عميرة (ج ١ المكتبة الشرقية) ان عميرة اشتهر بعلمه وحكمته في ذلك المجمع الذي عقبه انتقال البطريرك سركيس الى راحة الصالحين في ٥ ت ١ (٢٥ ايلول شرقي) ١٥٩٦ (١ وخلفهُ في اليوم التاسع بعد وفاته يوسف ابن اخيه موسى

وكان الاب دنديني بعد وفاة البطريرك سركيس والاحتفال بالصلوة عن نفسه عاد الى طرابلس رغم إلحاح الاساقفة عليه بالبقاء وحضور الانتخاب — متقيّدًا باوامر رؤسائه متجنباً تجاوُز حدود مهمّته. ولما قام البطريرك الجديد عاد الى قنوبين مع رفيقه وهنّأاهُ ثم اتفقوا على ان يغتنم الابوان فرصة انهماك البطريرك بالقيام ببعض واجبات اللياقة نحو حكام البلاد فيزورا الاراضي المقدسة ثم يعودا اليه فيداولاه ملياً في شؤون قصادتهما. وقد سرد الاب برونو هذه الحوادث في كتاب ارسلهُ الى رئيسه العام تاريخهُ ٢٣ ت١ ١٥٩٦ نورد منهُ بعض فقرات توقفك على حالة المارونة المعنوية قال:

«ارغب ان اصف لابوتكم بعض اخلاق هذه الطائفة المارونية وايّاها وتلثّتها الفريد بالكرسي الرسولي المقدس وليس المقصود من ذلك تزية قلب ابوتكم التي تحب الطائفة المارونية محبة فائقة بل تتميماً لرغبتكم في الوقوف على بعض امور هذه البلدان حتى يُعلم الجميع كيف

١) أرى انهُ يتيسّر الترفيق بين رواية الدويهي والاب دنديني لان المجمع عقد في ١٨ ايلول شرقي او ٢٨ غربي ودام يومين اي حتى ٢٠ شرقي او ٣٠ غربي. وبعد انعقاد المجمع بستة ايام مات البطريرك اي في ٢٥ ايلول شرقي و٥ ت١ غربي وانتُخب خلفهُ بعد موته بتتمة ايام اي في ٤ ت١ غربي او ٥ ت ١ شرقي. والاب دنديني يقول ان الانتخاب كان في ١٣ والاب برونو انه جرى بعد انتقال البطريرك بعشرة ايام. فلا نرى اختلافاً يُذكر

ان سيدنا وربنا يسوع المسيح يُخدَم حتى اليوم في مكان لا مساعدة بشرية فيه بل تعترض هذه الخدمة موانع جمّة. ان الروح يهبُّ حيث يشاء»

ثم ذكر حالة الموارنة الفقرية بسبب الجور المتواصل واضطرارهم الى دفع المال لا للسلطان وحده بل لسائر الحكام والقضاة المسلمين فاجأ الامر كثيرين الى مغادرة بلادهم والتفرّق بين الامم الغريبة معرّضين ايمانهم للخطر او في الاقلّ للتشويه. ثم قال:

«ان تعلّقهم بهذا الايمان بالغ من السواد الاعظم منهم مبلغاً عظيماً حتى انهم بقية اتقياء هذا الخطر الذي يُعرّضون لهُ بضرب العصي يبيعون ما يملكون بابخس الاثمان مستبقين ما كولهم فقط ويترحون من بلادهم. امّا ايمانهم فانهُ كما ستعلمون ابوتكم منا لدن رجوعنا على ما تعلّمهُ وتكرز بهِ الكنيسة الرومانية المقدسة حتى انني ذهلت كيف انهم بغير معلمين او مبشرين لا الاكليريكيون والاشراف فقط بل العامّة والفلاحون ايضاً متى سمعوا بقضية من قضايا الايمان الكاثوليكي تُتلى عليهم اعترفوا بها حالاً اعترافاً اكيداً مخلصاً واخذوا باحترام كما يقبل عندنا اللاهوتي الضليع. وبعكس ذلك متى سمعوا قضية هرطوقية او ضلالية اشمأزّوا منها وانكروها بعلامات وكلمات تشبه الكلام الذي يلفظ عندنا لمّا يبلغهم خبر الموت»

ثم اسهب الاب المذكور في مدح احترامهم للحبر الاعظم ولكل ما يباركهُ ولموفديهِ ولكل ما يكون مصدره رومية قال: «انهُ لم يرَ شعباً يحترم الاشياء المقدسة كهذا الشعب» ... وذكر انهم يطلبون بركة رؤسائهم قبل سفرهم وانهم قبّلوا اقدام موفدَي الحبر الاعظم رغماً عن ارادتهما. وختم بهذا الكلام:

«اني اقول بكل صدق ان هذه الطائفة بلغت محبتها للحبر الروماني مبلغاً يضطرّني الى الجهر بانني لم أرَ حتى الساعة في اقطارنا من يظهر طاعة للكرسي الرسولي كطاعتهم او تعلّقاً بهِ كتعلّقهم حتى انهم في المجمع الذي عُقد آخراً قال البطريرك عنّا: «حيثما يذهب الكرسي الروماني نذهب نحن ايضاً». فاضاف الشدياق وهو اهمُّ رجل في هذه الطائفة (لانهُ مقدّم): «وانا اذهب معهُ حتى الى الجحيم»

اوردنا ذلك ليعتبر الجميع ان الموارنة لم يخلوا يوماً من علامة الكثلكة الخارجة عن هذه اي الخضوع لرومية في ما ترسمهُ من القوانين وتحدّده من العقائد مع ما تسرّب الى بعض كتبهم من الاغلاط او قالهُ بعضهم عن جهل الحقائق. فان إسراعهم الى امتثال اوامر الحبر الاعظم لغريب عجيب وكأني بالاب بيرونو يقول ان فيهم غريزة خاصّة تحملهم على الانقياد الى ما هو كاثوليكي والى النفور ممّا هو مخالف للكنيسة.

ولا بدع فان سلامة نية هذا الشعب وسذاجة ايمانه أهّلاه لان يكون دائماً مستعدّاً للتسليم دون ما تردُّد بما تأمر به رومية مركز الكثلكة. وقد اتّفق جميع الذين كتبوا عنه انه متحلٍّ بهذه الخلّة وهي لا ريب نعمة سماوية

ولمّا عاد الابوان من القدس صعدا توًّا الى قنوبين واجتمعا بالبطريرك والاساقفة فاثبتوا جميع ما كان سبقت الموافقة عليه في المجمع المنعقد في ايام سلفه السعيد الذكر وصمّموا على تنفيذ التدابير التي كانوا قد قرّروها ومنها ان يُسام اسقف على قبرس يقيم في الجزيرة لان الموارنة فيها كانوا في حاجة كلية الى رئيس يدير شؤونهم ويجمع شتاتهم ويعزّيهم وينشّطهم ويدافع عنهم في ضيقاتهم كما ان السيد البطريرك بناء على إغراء الاب دنديني عزم على ان يعرض لقداسة البابا ان يعيّن اسقفاً لقبرس يكون من تلاميذ المدرسة المارونية القبرسيين. والى ان يتمّ ذلك قرّر البطريرك ان يرسل مطراناً يزور الموارنة ويطّلع على احوالهم ويوزّع عليهم ما يلزمهم من الآنية المقدسة والكتب الطقسية التي هم بحاجة قصوى اليها. وكان الاب دنديني قد اتى بهذه الكتب من رومية (١)

٢ سيامة عميرة كاهناً واسقفاً واعماله الاولى

وممّا تمّ الاتفاق عليه بين البطريرك والموفدَين الرسوليين ان يُعهد الى موسى الحصيبي ويوحنا الحوشبي بخدمة النفوس والطائفة. اما جرجس عميرة فلبث ينتظر ان تُسنَد اليه مهمّة وما طال الامر حتى اقتنع البطريرك بوجوب تشغيله في كرم الرب لان الاب دنديني الذي كان يعرف مقدرتهُ وعلمهُ وفضيلتهُ الحّ الحاحاً شديداً بسيامته للاستفادة من صفاته الممتازة وهاك ما قالهُ عنهُ:

« ان عميرة كان قد اعتنى بكتاب القداس الذي طبع في رومية لاستعمال الطائفة المارونية والّف قراماطيقاً سريانياً جيّداً طبعهُ في رومية ثم انكبَّ على الفلسفة واللاهوت اكثر من سواه»

فهذا ما دعا الاب دنديني على توسّم الخير به ولا نخطئ اذا قلنا ان اساقفة

(١) ما استطعنا الاهتداء الى اي طبعة من كتاب القداس يشير الاب دنديني لان طبعة ١٥٩٦ اوقف استعمالها الكرسي الرسولي ليتمّ فحصها. اما البطريرك فكان منها كما روى الدويهي في منارة الاقداس

عميرة كانوا اعطوا الاب المذكور الافادات اللازمة عنهُ واذا رُؤي اكثر لياقةً من سواه لتأليف كتب كانت حاجة المارنة اليها ماسَّةً ككتاب حوادث الاعتراف (علم النيَّة) للكهنة والمعرّفين والتعليم المسيحي للاحداث والجهلة وكتاب توزيع الاسرار والصلوات الفرضية لينظّمها ويرتّبها . ثم اردف الاب دنديني ما تقدم بقوله :

« وبما انه (اي عميرة) لم يكن ماسّاً فقط بل ممتازاً بتقواه وبخاصّاً الكنيسة المقدسة وللكرسي الرسولي قد سعيتُ رغم الماكسات القوية التي اوحت بها اغراض بشرية في ان يرقى الى الدرجات المقدسة ثم الى مقام الاسقفية حتى يستطيع ان ينظم بسهولة اوفر وسلطة عظمى في تلك البلاد رسوم عبادة الله الخارجة بمقتضى الطقس الكاثوليكي الحقيقي وقد سيم كاهناً بوضع يد المطران موسى (١ وبعد ذلك رسمهُ البطريرك رئيس كهنة ثم اسقفاً بمعاونة مطرانين وعهد اليهِ بتأليف الكتب المشار اليها »

ولا يمكن ان نعيّن يوم تسقيفهِ بنوع اكيد الّا انهُ لا ريب في انهُ رقي الى درجة كمال الكهنوت قبل ٢٦ك١ ١٥٩٦ لان العريضة التي رفعها الى الحبر الاعظم اقليمس الثامن مؤرخة في ٢٥ منهُ وهي صادرة من قصبة اهدن وفي هذه العريضة من الفوائد ما يحملنا على نشرها مترجمة عن الايطالية كما وردت في مجموع الاثار المارونية للاب طوبيا العنيسي

عريضة المطران جرجس عميرة الى الحبر الاعظم

« ان محبتي واخلاصي الكرسي الروماني المقدّس والآلاء التي أسبغها عليَّ تضطرُّني الى ان ابسط لدى قداستكم حالة هذه البلاد وخصوصاً حالة وطني اشعاراً بخضوعي واحترامي شأن الابن المطيع . ان هذه البلاد كما عرض لكم الاباء اليسوعيون المحترمون في رسائلهم متضايقة جداً في احوالها الزمنية بسبب استبداد الاتراك وفرضهم الضرائب المتواصلة والبلص والعربان ولذا سئم السكان الحياة بما انهم اصبحوا ولا رجاء لهم الّا بمعونة الله ومساعدة المسيحيين الذين يأتون لتحرير هؤلاء التعساء من ربقة هذا

١) هو المطران موسى اسقف بنرّاي ورد اسمهُ في ذيل مجمع قزوين ١٥٩٦ وفي ذيل مجمع ضيعة موسى المنعقد في هيكل مرت مورا ١٥٩٨ وهذه الضيعة هي في بلاد عكّار على ما قال السعيد الذكر البطريرك بولس مسعد . ولم يكن الرسم المطران موسى العنيسي لانهُ سيم اسقفاً بعد عميرة بسنتين اي ١٥٩٨ كما ورد في تاريخ الازمنة للدويهي

الاسر وثقل هذا النير

«اما في الامور الروحية فاني اجد هذه الطائفة المارونيَّة شديدة التعلُّق بالكنيسة المقدَّسة الرسوليَّة الرومانيَّة اولى الكنائس كافَّة وامهنَّ . لكني ارى الحاجة الى الفعلة ماسَّة لان الحصاد كثير والفعلة قليلون . ومتى وُجد هؤلاء الفعلة ضاقت عليهم اسباب المعيشة فتعذَّر عليهم ان يأتوا عملاً مفيداً للنفوس ولولا حالتهم هذه لكانوا يؤدون خدمات جليلة . فازاء هذه الحالة أرى نفسي غير اهل انا الذي منذ برحتُ رومية برضاكم وامركم لم اتلكأ بعونة الله عن التبشير بكل ما تأمر به رومية وعن اثبات رئاسة الحبر الروماني . . ولا استشهد على صدق قولي غير فادينا ومخلصنا يسوع المسيح الذي تقومون مقامه . ثمَّ جاء الآباء المُحترمون اليسوعيون وخصوصاً الاب ايرونيموس دنديني موفد قداستكم الجزيل الاحترام وبمشورته ورأي السيِّد يوسف خاطر والسيِّد فرج حاكمي هذه البلاد ومديريها واطاعةً للاب دنديني رُقيتُ الى الدرجة الاسقفيَّة رغماً عني وضد ارادتي . فاراني مغموماً ومتعباً في هذه الدرجة . لان الاسقف في هذه البلاد يناله عناء وحيف كثير من قبل الاتراك وغيرهم من القوم الظالمين لذلك اراني عاجزاً عن القيام بوظيفة الاسقف كما هو واجب لنقص هذين الامرين المادِّيين . ولذا لا استطيع ان اتفرغ لحاجات النفوس مرتاح البال ولا ان اكتب او اترجم من اللغة اللاتينيَّة خلاصة الحوادث وسائر الكتب الروحية بل انني مضطر الى الاهتمام بزراعة الارض وما اشبه لا بهمَّة الاسقف وذلك مما لا يليق بهذه الدرجة السامية . ثم انهُ ليس لديَّ الملابس الحبرية اللازمة بها اقدر ان اقيم احتفالات القداس الحبري والرسامات وسائر الخدمات الاسقفية . فهذه الاسباب وما شاكلها تضجرني وتقلقني وتجعل افكاري في ارتباك وهي نفسها تحملني على الالتجاء الى قداستكم فانكم بصفتكم رئيساً شرعيًّا واباً عاماً للعالم اجمع ستتنازلون وتمدُّون لي يد المساعدة ان شئتم ان اصرف عنايتي الى الاهتمام بالنفوس والى القيام بالمهامّ الاسقفية وتجودون عليَّ براتب وان طفيفاً وباللبس الحبري

«ولا ريب ايها الاب الاقدس انهُ سينجم عن ذلك فخر للكرسي الرسولي لاني لست اطلب ما تقدم لمنفعتي بل لامكن من سياسة قطيع المسيح الموكول امره الى قداستكم واستطيع تعليمه الامور الضرورية للخلاص وحمايته من الذئاب المحيطة

به ومن المراطقة والمنفصلين فيتيسّر لي ان اعيش في هذه البلاد بنوع لائق بالمقام الاسقفي. فان الذين يروني ادافع دائماً عن الشؤون المختصة برومية واعظّمها واكرز بها قبل سواها لا يَدْعوني الّا الاسقف الروماني اي الرجل الذي هو بجانب رومية في كل المسائل. فهذا ما يجب عَرْضه لمقام قداستكم فان فزتُ بالمساعدة استطعت ان اخدم هذه البلاد خدمات جزيلة وان انجح دائماً في الامور التي تهمّ الكنيسة الرومانية وان لم افز بشيء اضطررت الى الرجوع الى ايطالية واستحال عليّ النهوض من تحت ثقل هذه الاعباء. وعلى كل فاني مستعدّ لتتميم كل ما تأمر به قداستكم.»

وبالتاريخ نفسه كتب الى رئيس الرهبانية اليسوعية العام الاب كلودويوس آكوافيفا المشهور بحبته للموارنة وشرح له حالة البلاد وتمنّى اليه ان يؤسّس رسالة لرهبنته في لبنان ويرسل اربعة او خمسة من رهبانه يقيمون حيثما يرون ملائماً لعملهم لان البلاد بحاجة اليهم. ثم اثنى على موفدي الكرسي الرسولي الابوين دندريني وبرونو اللذين خلّفا من آثار الحكمة والفضيلة في لبنان ما كان تأثيرهُ جميلاً وثابتاً وختم واصفاً فقر ابرشيته وكنائسها والتمس من الرئيس العام ان يساعده ليحسن القيام بواجبات وظيفته وخلاص النفوس وان يعرض لقداسة البابا حاجاته ويؤيد طلباته لديه. وفي واقع الامر نال الاسقف الجديد من مكارم الحبر الاعظم معاشاً سنوياً صُرف له حتى آخر حياته وشملهُ الكرسي الرسولي بعطفهِ وعنايته

اما البطريرك فقلّد عميرة سياسة رعية اهدن فاقام في دير مار يعقوب الاحباش ثم انتقل الى دير مار سركيس رأس النهر ولبث فيه الى ان انتُخب بطريركاً

وقد زاره بعد تسقيفه مرسلون سيّاح فاثنوا عليه كل الثناء. ومما قاله اوجين روجه في كتابه «الارض المقدسة»: «انهُ تعاطى في جبل لبنان اكثر من سنة مع السيد الشهير جرجس عميرة الذي رقّاهُ بولس الخامس الى الطرانية على قصبة اهدن مسقط رأسه وقد انعم عليه قداسته بنوع خاص (بسبب تقواه وعلمه) بان يحتفل القداس باللغة اللاتينيّة وحسب الطقس اللاتيني وبالسريانية وحسب الطقس السرياني على ايثاره حتى انهُ كان يقيم الذبيحة الالهية حسبما توحي اليه عبادته وتقتضيه الازمنة. وهذا الالزام قلّ ان ناله غيره»

وقد وَهم الكاتب بقوله ان بولس الخامس رقاه الى الاسقفية لانك رأيت من

كتابته انهُ سيم اسقفاً في ايام اقليمس الثامن قبل عهد بولس الخامس بتسع سنوات. اما الانعام عليهِ بان يقدس حسب الطقسين فلم نجد لذلك ذكراً في غير هذا المؤرخ فلا يمكننا انكاره ولا اثباته

وقد وصفه الاب الفرنسيسكاني جان بوشه قال: «والحق يقال ان كل الافراح التي ذقناها في اهدن في جهة الارز كانت زالت لو لم تنعشها معاشرة سيادة المطران جرجس عميرة الكلي الشرف تلك المعاشرة الروحية العذبة واللذيذة. فان هذا المطران جعل مقامه الاعتيادي في هذا المكان (اهدن) واعماله المقدسة هي من الخوارق وكلامه الفصيح الخارج من فمه تارة بالسريانية او العربية وتارة بالعبرية او بالايطالية يقطع قول كل خطيب»

ولما تولى عميرة ابرشية اهدن كانت البلاد مضطربة ولبنان الشمالي مركز الموارنة الاصلي معرَّضاً لغزوات بني حرفوش ونهب العساكر التركية. وزاد في الضيق شدَّةً خروج الامير فخر الدين الكبير على الدولة العثمانيَّة فتبعه السواد الاعظم من اللبنانيين مؤملين ان يتخلَّصوا بواسطته من صنوف الظلم والاستبداد. ففي سنة ١٥٩٨ اشتبك رجال فخر الدين وجند يوسف باشا سيفا في نهر الكلب فانهزم ابن سيفا وقُتل ابن اخيهِ الامير علي وتولى الامير فخر الدين حكم بيروت وكسروان سنة واحدة ثم تنازل عنهما لابن سيفا وعاد الى الشوف. ثم انهُ في سنة ١٦٠١ حوَّل يوسف باشا سيفا يوسف وقنصو ولدَي احمد حماده على مقدمي جاج الاربعة الذين كانوا انضموا الى فخر الدين فغدرا ورجالها بالمقدمين وقتلوهم ونهبوا اموالهم وتولوا على بلاد جبيل

ثم في اوَّل جمعة من شهر حزيران ١٦٠٢ غزا الامير موسى الحرفوش مع جماعته جبة بشري فنهبوها واستاقوا مواشيها واحرقوا ما احرقوا ولم يلقوا مقاومة لان السواد الاعظم من الاهالي كانوا في السواحل متمسكين بموسم الحرير. فجرَّد ابن سيفا على الحرفشة حملةً وزحف على بعلبك فدخلها على حين غرَّة يوم عيد مولد يوحنا المعمدان فنهب وسلب وقتل الذين انحازوا الى الامير فخر الدين ثم نادى بالامان ويا لهُ من امان

وروى الدويهي في تاريخ الازمنة انهُ لما هجم رجال الامير موسى الحرفوش على

جبة بشرّي دخل اثنان منها كنيسة دير مار سركيس وأس النهر في اهدن وطمن احدهما بخنجره ثلاثاً صورة السيدة عليها السلام فيبست يده للحال ومات في تلك الليلة

ومما لا بد من ذكره هو ان الامير فخر الدين تعاقد وزعيم الجنبلاطيين الاكراد احد اجداد آل جنبلاط اللبنانيين المشهورين فمال اليها النصارى واوعز الباب العالي الى ابن سيفا ان يناجزهما القتال وينكل بهما فجرت عدة مواقع انتهت بمعقد محاجزة بين الخصوم سنة ١٦٠٥ . ثم ما لبث ابن جنبلاط ان خلع الطاعة . لكن جيش الدولة تمكن من الفوز برجاله واعمل السيف في رقاب الجنبلاطيين . ولما رأى فخر الدين اي منقلب انقلب ابن جنبلاط ارسل يستعطف السر عسكر بالمال والهدايا فعفى عنه وولّى ابنه على سنجقية صيدا وبيروت وغزير لكن البلاد لم تنجُ من البلص والظلم بل تفرقت فيها الجنود وحصل من ذلك ضيق عظيم وبلغ ثمن شنبل القمح اربعة غروش فخربت الاديرة والقرى ومنها حوب وبلمز ورام وتولا وسلب دير ميفوق ودامت الحال خمسة اشهر

وفي كتابة ارسلها يوسف اليان الحلبي الى الكردينال الدوبراندديني في ٢٦ ت ١ سنة ١٦٠١ وصف مسهب لحالة النصارى في حلب ومما زاد في الطين بلّة فشو الطاعون في تلك الحاضرة حتى ان الوفيات فيها كان تحصى بالالوف

اما المطران جرجس عميرة فكان همه منصرفاً الى امور رعيته مع ما كان عليه البلاد من الاضطراب وسعى باقتناء ارزاق وافية لكرسي اهدن حتى يتمكن اسقفها من التفرّغ للاعمال الروحية لا ينهمك بامور المعيشة وعنى بنوع خاص بتعليم الشعب وبتثقيفه وتخفيف ويلاته واعالة الايتام وترميم الكنائس بمساعدة اهالي القصبة

(لها بقيّة)